حول قصيدة

للدكتور طه حسين

فى مساء يوم من أيام سنة ١٩٢٠ دخل الأديب الفرنسى جاك ريفير على صديقه الشاعر العظيم بول فاليرى ، فرأى امامه صورا مختلفة لقصيدة أنشأها ، أو قل لقصيدة كان ينشئها . فاختلس صورة من هذه الصور ، ثم خرج فنشر هذه الصورة فى مجلة من المجلات الفرنسية الكبرى .

وهذه القصيدة هى « المقبرة البحرية » ويجب أن تعلم أن بول فاليرى لا يتم أثرا من آثاره الفنية وانما يتركه . وهو يفسر لنا هذا حين يتحدث الينا فى بعض ما كتب من الفصول ، بأن الشعراء وأصحاب الفن فى العصور القديمة ، لم يكونوا يتمون أثراً من آثارهم ، وانما كانوا يعملون فيه ينقحونه ، ويهذبونه . ينقصون منه ، ويضيفون اليه ، ويلائمون بين أجزائه ، يبتغون الكمال ما وجدوا الى ابتغائه سبيلا . حتى اذا أكرهوا على تركه اسلموه الى النار أو أسلموه إلى الجمهور . فالنار والجمهور عند بول فاليرى وعند أصحاب الفن الأقدمين سواء . كلاهما يميت الأثر الفنى بالقياس الى مبدعه لأنه يختص نفسه بهذا الأثر فيحرقه تحريقا ويقطع الصلة بينه وبين صاحبه ، ويجعله ملكا لنفسه ، يتمثله كما يشاء أو كما يستطيع ويذوقه ، ويفهمه كما يريد ، أو كما تمكنه ملكاته الخاصة من الفهم والذوق . وبول فاليرى حريص على هذه السنة الفنية القديمة ، فهو لا يتم كما قلت قصيدة من الشعر ، ولا فصلا من النثر ، وإنما يمضى فيه مصلحا مهذبا ، ساعيا إلى هذه الغاية القريبة التى لا تدرك وهى الكمال . حتى تضطره الظروف الى أن يدع قصيدته أو فصله أو كتابه لصديق مختلس كجاك ريفير أو لناشر ملح ، أو لأى ظرف من الظروف التى تذيع أثار الشعراء والكتاب ، وتخرجها من أيديهم إلى أيدى القراء .

وكذلك فرضت هذه القصيدة فى صورتها المعروفة على صاحبها فرضا ، ولعله لو خير لاختار صورة أخرى من هذه الصور التى كانت بين يديه ، لكنه نظر ذات يوم ، فاذا المجلة الفرنسية الجديدة تنشر له قصيدة « المقبرة البحرية » فلم يكن له بد من التسليم والاذعان .

على أن من العسير جدا أن تظفر فى التاريخ الأدبى الفرنسى ، بقصيدة كثر حولها الحوار واشتد فيها الجدال ، وتشعبت فيها الخصومة ، كهذه القصيدة التى لا تزيد على أربعة وأربعين ومائة بيت . فقد انفق النقاد الفرنسيون أعواما يدرسونها ، ويحللونها ، ويلتمسون معانيها ، وأغراضها ، ومظاهر الحسن ودخائله فيها . ثم لا يتفقون على ذلك بل لا يتفقون على شىء من ذلك ، بل يبلغ بهم الاختلاف أقصاه . فاذا بعضهم يرفع القصيدة الى أرقى منازل الآيات الشعرية الخالدة واذا بعضهم ينزل بها الى حضيض السخف الذى لا ينبغى الوقوف عنده ولا الالتفات اليه . واذا الأمر يتجاوز المجلات والصحف الأدبية إلى الصحف اليومية الكبرى ، ثم يشتد الخلاف وتنظم الخصومة حتى يضطر ناقد من كبار النقاد إلى أن يبدأ بحثا دقيقا وتحقيقا بعيد الامد ، فيختار قطعتين من هذه القصيدة ، ويعرضهما على الأدباء والنقاد المعروفين يسألهم عما يفهمونه منهما ، وما يرونه فيهما من الرأى ، ويدعوه ذلك إلى أن يسألهم عن أصل من أصول الفن الشعرى ، ظهر أنهم لم يكونوا يتفقون عليه بحال من الاحوال ، وهو الوضوح أهو ضرورة من ضرورات الشعر الجيد ، أم هو شىء يمكن أن يستغنى عنه هذا الشعر ؟ واذا شئت الدقة والجلاء فقل أيجب أن يكون الشعر الجيد واضحا جليا يفهمه من قريب من سمعه أو قرأه ، أم يستطيع الشعر أن يكون جيدا وإن حال الغموض بينه وبين فهم القارئين والسامعين .

ولا يكاد يبدأ هذا التحقيق حتى يعود الخلاف حول القصيدة وصاحبها كما كان حاداً عنيفا متشعبا . وكان بول فاليرى فى أثناء ذلك قد انتخب عضوا فى المجمع اللغوى الفرنسى . فيثير انتخابه حقد الحاقدين وحنق المحنقين ، ويزيد الخلاف حدة وعنفا . وتستطيع أن تقول غير مبالغ ولا مسرف ان المثقفين الفرنسيين جميعا قد شغلوا بهذه القصيدة وصاحبها أعوام ١٩٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

وانتهى أمر هذه القصيدة الى السوربون ، وما أقل ما تعنى السوربون بشعر المعاصرين ، واذا استاذ من أساتذة الادب فيها هو مسيو جوستاف كوهين يتخذها موضوعا لدرسه فى تفسير النصوص الادبية ، واذا هو يتخذها موضوعا لكتاب سماه محاولة لتفسير المقبرة البحرية . كل هذه الحركة العنيفة والشاعر صامت لا يقول شيئا ، ساكن لا يأتى شيئا ، أو هو لا يقول ولا يأتى شيئا يمس هذا الخلاف العنيف حتى اضطر صاحب التحقيق الذى أشرت اليه آنفا أن يكتب اليه ينبئه بأن كثرة الذين أجابوا على ما القى اليهم من الاسئلة يعترفون بأن لقصيدته معنى ولكنهم لا يتفقون على هذا المعنى ، وانما يختلفون اختلافا شديداً فى تحصيله ، ويسأله أن يبين ما أراد ليقطع الشك ويزيل الخلاف ، فلا يجيب الشاعر ويضطر كاتب آخر الى أن يطالبه فى صحيفة من الصحف الكبرى

بأن يبين للناس ما أراد أن يقول فى هذه القصيدة ، ليظهر من اخطا من النقاد ومن أصاب ، ويصفه بالكبرياء ، وبالحرص على أن يغيظ النقاد ، ولكنه على ذلك كله لايجيب حتى اذا ظهر كتاب استاذ السوربون ، نظر الناس ، فاذا الشاعر قد قدم بين يدى هذا الكتاب بمقدمه بديعة ممتعة ، يصفها بعضهم بأنها مثيرة للدوار ، لكثرة ما تشتمل عليه من المعانى والآراء فى وضوح لا يكشف الحجاب عنها كل الكشف ، وفى غموض لا يريح القراء من التأمل واطالة البحث والتفكير . فاذا قرأت المقدمة البديعة الممتعة المثيرة للدوار ، لم يتبين فيها القارىء جوابا لهذه الاسئلة الملحة التى ألقاها النقاد على الشاعر يتمنون عليه فيها أن يبين لهم ما اراد ، وانما يجد القارىء فى هذه المقدمة اراء موئسه من الوصول الى تحصيل المعانى التى اراد اليها الشاعر حين نظم قصيدته . فهو يقول مثلا : ان الناس يسألوننى ماذا اردت ان تقول ؟ فاما لم ارد أن أقول شيئا وانما اردت أن اعمل شيئا ، ورغبتى فى هذا العمل هى التى قالت مايقرأون ، وهو يقول مثلا ان الاثر الفنى الذى يصدره الشاعر أو الكاتب أو غيرهما من أصحاب الفن لا يكاد يخرج من يد منشئه حتى يصبح اداة من الادوات العامة يصرفها الناس كما يريدون أو كما يستطيعون . ومعنى ذلك أن القصيدة اذا أذيعت بين الناس ، فلكل واحد منهم أن يفهم منها ما أراد أو ما استطاع . فاما ما أراد الشاعر فامر مقصور عليه حين نظم ، ولعله قد نسيه أو انصرف عنه الى غيره من المعانى فلا ينبغى أن يسأل عنه ولا أن يطالب بتبيينه للناس .

وأظرف وأطرف أن الشاعر يثنى على الكتاب الذى يفسر قصيدته فيقول : أنه قرب هذه القصيدة الى الشبان من تلاميذه ، وأحاط بخصائصها التى تتصل بما فيها من الموسيقى والانسجام . ولكنه يقول : أوفق الأستاذ الشارح الى تحقيق المعانى التى قصد اليها الشاعر أم أخطأه هذا التوفيق

كل هذه الآراء وآراء أخرى للشاعر العظيم فى هذه المقدمة الممتعة إن لم تبين المعانى التى أودعها قصيدته فهى تبين شيئاً آخر أظنه أقوم وأجل خطراً من هذه المعانى ، وهو مذهب الشاعر فى فن الشعر ، وما ينبغى له من الارتفاع عن هذا الوضوح الذى يفسد الفن افسادا ، ويقربه من الابتذال ، فهو يرى مثلا أن جمال الشعر يأتى من انك تجد اللذة الفنية فى نفسك ، كلما جددت قراءته ومن انك تستكشف فى القراءة الثانية من فنون الجمال مالم تستكشفه فى القراءة الاولى ، بل تجد فى كل قراءة فنونا جديدة من الجمال لم تجدها فى القراءات التى سبقتها ، وأنت لاتجد هذه اللذة المتصلة المتنوعة الا لأنك خليق أن تستكشف فى كل قراءة معنى جديدا يثير فى نفسك شعورا جديدا بالجمال ، وهو يرى مثلا أن للشعر صفات تعصمه من الموت أو تعصمه من الموت القريب ، وهذه الصفات تتصل بوزنه وقوافيه وهذه الصور الخاصة التى لاتجدها فى النثر . وموت الاثر الفنى عنده يأتى من فهم الناس له ، فانت اذا قرأت كتابا وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه . فهناك اذن جهاد عنيف بين القارىء والمقروء ، فاذا فهم القارىء فقد غلب . وانما الاثر الفنى الخليق بهذا الاسم هو الذى يغلب قارئه ويعجزه ، ولكن دون أن يضطره الى اليأس والقنوط . ومن هنا يرى شاعرنا العظيم أن النثر بطبيعة تكوينه أقرب الى الموت وأدنى الى الفناء ، لأنه أقرب الى الفهم ، وأدنى الى الهضم ، لاتعصمه هذه الدروع المتقنة التى نسميها الوزن والقافية ، والموسيقى والصور

فاذا اضفت الى هذه المقدمة ما كتبه شاعرنا العظيم فى مواضع مختلفة ، وظروف مختلفة حول الشعر والنثر والادب عامة استطعت أن تلخص مذهبه فى الشعر الخالص أو فى الشعر العالى كما يقولون . فالشعر عنده كلام ، ولكنه كلام ممتاز ، وامتيازه لايجب أن يأتيه من معناه وحده بل يجب أن يأتيه من صيغته قبل كل شيء ، فحقيقة الشعر انما تلتمس فى صيغته وشكله ، تلتمس فى وزنه الذى يجب أن يبهر السمع ويؤثر فيه ، تلتمس فى انسجامه الذى يجب أن يثير فى النفس لذة الموسيقى ، أو لذة أرقى من لذة الموسيقى لأنها تمس العقل والشعور والسمع جميعا ، ثم تلتمس فى صوره التى تروع الخيال وتروع معه الحس أيضا ثم تلتمس قبل كل شيء وبعد كل شيء فى هذه الصفة التى لاأدرى كيف اسميها أو أحددها ، والتى تضطرك الى البحث والتفكير والى جهاد ما تفرأ فى غير ملل ولا يأس

وطبيعى بعد أن ثار هذا الخلاف العنيف الطويل حول هذه القصيدة أن تتجاوز حدود فرنسا ، ويعنى بها النقاد الاجانب كما عنى بها الفرنسيون ، كما يعنون بكل مايصدر هذا الشاعر من الآثار . فقد ترجمت هذه القصيدة أربع مرات فى اللغة الاسبانية ، وثلاثا فى اللغة الانجليزية ، وثلاثا فى اللغة الالمانية ولكن الغريب انها ترجمت فى اللغة الفرنسية نفسها شعرا . ترجمها الكولونيل جودشو ، وأرسلها الى الشاعر ، فكتب اليه الشاعر يقول : اشكر لك خالص الشكر ماأرسلت الى من ترجمة المقبرة البحرية الى لغة أقرب الى الوضوح . وسأضيف هذه الترجمة الى التراجم الاسبانية الاربع ، والى التراجم الانجليزية الثلاث ، والى التراجم الالمانية الثلاث ، والى تراجم أخرى لهذه القصيدة قد وقعت الى . وقد أعجبنى جدا

« البقيـــة على صفحة ٤٢ »